الإسم واللقب: أ. د رشيد بلعيفة

مداخلة اليوم الدراسي جامعة جيجل

النص والخطاب، التماس والمزايا

- **الخطاب: discours**

ظهر مصطلح "**خطاب**" في حقل الدراسات اللغوية في الغرب، ونما وتطوّر في ظلِّ التفاعلات التي عرفتها هذه الدراسات، ولا سيما بعد ظهور كتاب "فرديناند دي سوسور" (محاضرات في اللسانيات العامة) الذي تضمّن المبادئ العامة والأساسية التي جاء بها هذا الأخير، وأهمها تفريقه بين الدّال والمدلول،واللغة كظاهرة اجتماعية والكلام كظاهرة فردية،وبلورته لمفهوم "النسق" أو "نظام" والذي تطوّر فيما بعد إلى بنية.

ففي الاستعمال العادي نتحدث عن مصطلح "**خطاب**" للدلالة على ملفوظات رنّانة (ألقى الرئيس خطابا) أو للدلالة على التحقير لمّا نشير بها إلى ملفوظات سخيفة (كل هذا مجرّد خطابات) ، كما يُطْلَق هذا المصطلح على كلِّ استعمال مخصوص للغة (الخطاب الإسلامي – الخطاب السياسي – خطاب الشباب...)،وفي كلِّ هذه الاستعمالات تبقى لفظة "خطاب" غامضة [1].

في زماننا كثُرَ استخدام مصطلح "**خطاب**" في علوم اللسان، وكثرة استعمال هذا المفهوم تعود لكونه علامة على التحولات التي طرأت على إدراكنا وتصوراتنا لمفهوم الكلام . وهذا التحول ناتج عن تأثير مجموعة من العلوم الإنسانية والتي يتمّ تجميعها غالبا تحت عنوان **التداولية** .الخطاب يتحدّد باعتباره إنتاجا لمختلف التطبيقات القولية المستعملة في الحياة العامة داخل المجتمع[1]،وميادين الدين والسياسة والقانون والأدب وغيرها هي مصادر ومرجعيات للخطابات المُعَدَّة والمهيأة ، والمُحَدَّدة بمجموعة من قواعد التواضع .

ونظراً لتعدد مدارس واتجاهات الدراسات اللسانية الحديثة فقد تعدّدت مفاهيم ومدلولات هذا المصطلح ، نورِد بعضها فيما يلي :

أ-خطاب : مرادف المفهوم السوسيري "كلام" ، وهو معناه المعروف به في اللسانيات البنيوية .

ب – الخطاب ما دام منسوبا إلى فاعل فهو يشكل وحدة لغوية تتجاوز أبعادها الجملة ، رسالة أو مقول.بهذا المعنى يلحق الخطاب بالتحليل اللساني لأنّ المُعْتَبَر في هذه الحالة هو مجموع قواعد تسلسل وتتابع الجمل المكوّنة للمقول ، وأول من اقترح دراسة هذا التسلسل هوة اللغوي الأمريكي "**هاريس**".

ج- والخطاب حسب "بنفينيست" هو كلّ مقول يفترض متكلما ومستمعا تكون لدى الأول نية التأثير في الثاني بصورة ما.

ويمكن إضافة مفهوم آخر للخطاب بمقابلته بمفهوم "لغة" كمجموعة متناهية من العناصر مستقرة نسبيا ، فيكون الخطاب عندئذ مجالا لإبداعٍ تتشكّل فيه وبطريقة غير ملحوظة سياقات تعطي قيَّما جديدة للغة ،وهكذا فإنّ تعدّد معاني لفظة ما صنيع خطابي يتحوّل بالتدريج إلى ظاهرة لغوية .

وبهذا نصل إلى أنه على المستوى اللغوي البحت يشير مصطلح **"خطاب"** في معناه الأساسي إلى " كل كلام تجاوز الجملة الواحدة سواء أكان مكتوبا أو شفويا . غير أنّ للخطاب مفهوما آخر ربما فاق المفهوم الألسني البحت في أهميّته النقدية ذلك هو ما تبلور في كتابات بعض المفكرين المعاصرين وفي طليعتهم الفرنسي "ميشيل فوكو"،ففي محاضرته "نظام الخطاب" يحدِّد "فوكو" الخطاب بأنه شبكة معقدة من العلاقات الاجتماعية والسياسية والثقافية التي تُبْرُز فيها الكيفية التي ينتج فيها الكلام كخطاب ينطوي على الهيمنة والمخاطر في الوقت نفسه.

النص : Texte

مصطلح **"نص"** يُسْتعمل للدلالة على قيمة محدّدة، وخاصة لمّا يتعلق الأمر بفهم الملفوظ باعتباره يشكِّل كلاًّ أو وحدة متجانسة. وقسم اللسانيات الذي يدرس هذا الانسجام والتجانس يسمى **"لسانيات النص".**

هناك اتجاه يتحدّث عن النص كونه إنتاجا قوليا شفويا أو مكتوبا، ويصاغ بطريقة تسمح له بالديمومة، وبأن يكرّر ويعاد إنتاجه (يروى)، وبأن يذاع ويُنْشَر خارج سياقه الأصلي . لهذه الأسباب يكثر الحديث في الاستعمال العادي عن النصوص الأدبية والنصوص القضائية وغيرها في حين ننفر من الحديث عن النص فيما يتعلق بالمحادثة الشفوية .

والنص لا يكون بالضرورة مُنْتَجًا من طرف متكلِّم واحد . ففي المناقشات والمحادثات يكون إنتاج النصِّ موزّعا بين عدد من المتكلمين ، هؤلاء المتكلمون يمكن أن يخضعوا لسلّم رتبي ، وبخاصة لمّا يتعلق الأمر بالخطاب المنقول ، أي لما يُضَمِّن متكلِّمٌ في حديثه أقوالا لمتكلم آخر ، هذا التّنوع في النصوص هو شكل من أشكال تباين النصوص داخل النص الواحد. والشكل الآخر من تباين النصوص يتمثّل في العلامات الأيقونية (رسوم –صور) تلك التي توظفها النصوص كعلامات غير لسانية[1] .

باختصار ، النص يتعلق بالنموذج التجريدي الذي ينظم الملفوظات تحت قاعدة نماذج الخطابات . وقد قدّم "جان ميشيل آدام" معادلتين تبينان استقلالية النص وتجريديته ، وحسبه، يجب عزل النص عن محيطه وظروف إنتاجه [1].

خطاب = نص + سياق .

نص = خطاب- سياق .

أما **"بول ريكور"** فإنه يرى أنّ النص هو خطاب تمّ تثبيته بواسطة الكتابة .

إنّ النص في رأي "ريكور" لا يكون نصا إلا بعد كتابته ، فكأنه يقصي ويبعد كل النصوص الإبداعية الشفوية التي نصادفها كالخطب والأمثال وغيرها . إنّ التثبيت الذي تمارسه الكتابة ما هو إلا حدث حلّ محلّ فعل الكلام ذاته .

أما **"قريماس"** فقد جعل النص مرادفا للخطاب أو الملفوظ .

بين الخطاب والنص في النقد الغربي والعربي

يسجل النص حضورا مألوفا في معاملاتنا اليومية، وفي ضروب شتى من معاملاتنا، وهو حاضر في سياقات شتى، ولأغراض متعددة، وقد مثل النص قديما وحديثا موضوع البحث في علوم مختلفة، لكن بالرغم من حضوره المكثف في حياتنا، فإن تعريفة وتحديد ماهيته، ظل عصيا على الإجماع، حتى عند الباحثين المتخصصين في علوم لسانيات النص، ولعل صعوبة تحديد النص تكمن في رسم حدوده المفتوحة، فلم يُحدد بصورة واضحة، من حيث الطول أو القصر، أو هل يمكننا أن نعتبره أقوالا تتمثل في جملة واحدة؟أو في أقل من جملة؟، وكذا من حيث الكتابة، هل هو الكتابة؟ أم هو الخطاب الشفهي؟ لهذا توزعت التعريفات بين المدارس، وفق توجهها النظري ومرجعيتها الفلسفية، شأنه شأن تعريف الخطاب.

إذا كان مفهوم الخطاب حديث النشأة في المعاجم اللسانية، التي انكبت دراستها على الجملة، فإن المدارس الأخرى تجاوزت الجملة إلى النص، فنشأ بذلك هذا التداخل بين الخطاب والنص، في مرجعيات الخطاب النقدي الحديث، إلى حد"يصعب أحيانا التمييز بينهما[1]"، فموسوعة اللغويات العالمية توظف الخطاب والنص، لذات الدلالة، وهما عندها "وحدة لغوية تتعدى حدود الجملة[2]"، بخلاف اللسانيات الحديثة حيث تميز بين النص والخطاب:فالنص هو الأثر المكتوب، والخطاب الأثر المنطوق.

إذا كان تعريف الخطاب في الثقافة النقدية الغربية، لم يعرف الاستقرار والثبات الذي يوحد مفهومه، فإن النص كان أوفر حظا في الدراسة، وفي تعالق تعريفاته، إلى درجة التطابق في بعض الأحيان، بالرغم من عدم الاتفاق على تعريف موحد، يجنبنا عناء التقلب بين التعريفات المختلفة، فقد جاء في المعجم الموسوعي لعلوم اللسان:أن النص سلسلة من

الملفوظات اللسانية، التي تتركب لتكون نصا، وهو "المتصف بخصائص صوتية ونحوية وتركيبية، فيصير وحدات نصية ذات علاقات فيما بينها، شريطة حملها لمستوى دلالي واضح[3]"، إذا كان هذا التعريف يتقاطع في بعض أجزائه مع تعريف الخطاب، إلا أنه يختلف معه في أن النص يحتوي على شرط انطواء المعنى على دلالة بين عناصره، ويكون النص نسقا ذا دلالة إيحائية[4]"؛فيكون النص بهذا التعريف، له مظهر دلالي يتم فيه إنتاج المعنى، الذي يتحول إلى دلالة حال تشكله في ذهن القارئ، بخلاف الخطاب، الذي يحمل مظهرا نحويا مركبا من وحدات لغوية ملفوظة، أو مكتوبة، كما يخضع لقواعد خارجية في تكوينه، وأخرى داخلية، ومحكوما بخصائص نوعية، "كما نجد فيه صدا واضحا للآثار الزمن والبنى الثقافية[5]". فالخطاب مظهر نحوي، يمكن أن يكون منطوقا، أو مكتوبا فيما النص لا يكون إلا مكتوبا.

فالنص بمفهومه الاصطلاحي، يتولد عن مجموعة من التعريفات، يصب كل منها في خانة الدراسة التي تهتم بالنص، فلم يتفق النقاد الحداثيون على تحديد طبيعة النص، تبعا لمنابع تفكيرهم، بين اللسانيات والسيمائيات وغيرهما من الاتجاهات الفكرية في النقد الأدبي. يرى اللسانيون أن النص يشكل عالما مستقلا، لايحتاج في تحليله إلى عناصر داخلية، حيث إنه يمثل شبكة من العلاقات بين مختلف مستوياته، ولعل الشكلانيين الروس،هم رواد هذا الاتجاه، فـ **تينيانوف** يرى:"أن الوظيفة البنائية لعناصر من الأثر الأدبي كنظام، هو إمكانية دخوله في علاقات متبادلة مع عناصر أخرى لنفس النظام، وبالتالي دخوله مع النظام بأكمله[6]". ويرفض معالجة العناصر على أنها وحدة مستقلة، وهو بذلك يركز على الجانب اللغوي في النص، عطفا على آراء **دوسوسير** اللغوية، لأن النص عندهم، بنية لغوية مغلقة ومستقلة عن وعي المتلقي[7]".

أما **رولان بارت** فقد قدم تصورات إجرائية لعالم النص، وقد أسهم بفعالية في صياغة علم النص، فأحاطه بجملة من النظريات، وقرنه بالعمل الأدبي سواء كان شعرا أم نثرا.لقد خص بارت النص بأربعة مفاهيم، أحاطت بما قِيل عن النص، خاصة في الدراسات اللسانية والأدبية، فالنص عنده يتكون من ويصنع نفسه، من خلال تشابك مستمر، فالنص:هو نسيج الكلمات المنظومة في التأليف، حيث تفرض شكلا ثابتا في عملية ولادته، شديدة التماسك[8]"، فرفع بذلك من مفهوم النص باستخدام التشكيل التحويلي والإنتاجي للنص، وبهذه الآليات، فالنص يتحول، وينمو، ويصبح بناء يجمع معارف عدة، ويتلقى ثقافات أخرى، "فالنص نسيج مرتبط بالكتابة، والنص يضمن صيانته على مر العصور[9]"، ويكتسب بذلك الاستمرارية فيقف في وجه النسيان.

أما النص عند **تودروف**، فهو لايتوقف عند مفهوم الجملة، أو التركيب، كما أنه مميز عن الفقرة، التي هي وحدة منظمة من عدة جمل[10]"، بل أن النص عنده يمكن أن يكون جملا، ويمكن أن يتعداها إلى أن يكون كتابا، فهو يتكون من نظام خاص به، لايمكن قياسه مع النظام الذي يتم به تركيب الجملة، "والعلاقة التي تربطه معه، هي علاقة اقتران أو تشابه[11]"، كما أن تعريف النص عنده يقوم على أساس استقلاليته وانغلاقه، ولكي يتمايز النص عن النصوص الأخرى، لابد أن " يخرق النظام الثقافي، الذي يفرض معاييره الخاصة، ليؤسس نظامه الخاص[12]"، بخلاف نظرة **لوري لوتمان** إلى الأدب، على أنه "مجموعة من النصوص المعترف بشرعيتها داخل ثقافة محددة[13]"، ومن هنا فإنها تشكل جزءا من نظام الثقافة وعليه لابد للنص أن يُبرز الآليات والتمفصلات الكبرى لهذه الثقافة.

لقد استحدثت **جوليا كريستيفا** منهجا جديدا، وفق ما يراه أغلب النقاد، بتعرضها لماهية النص وعلاقته بالملفوظات، فتقول عن النص:"بأنه آلة نقل لساني، وأنه يعيد توزيع نظام اللغة، فيصبح الكلام التواصلي أي:المعلومات المباشرة – في علاقة تشترك فيها ملفوظات سابقة، أو متزامنة، فعلاقة النص باللسان، علاقة توزيعية، قائمة على الهدم والبناء، أنه مؤسس على مجموعة متناصة[14]"، إذ نجد في النص الواحد، ملفوظات مأخوذة من نصوص عديدة، متضمنة في النص الأصلي.يرتبط مفهوم النص عند **كريستيفا**، "باعتباره – وحدة أيديولوجية[15]"- على أساس أن البحث السيميولوجي يلغي التقسيم البلاغي القديم، للأجناس الأدبية، وحل محله عمليات تحديد أنماط النصوص المختلفة، بالتعرف على خصوصية النظام الذي يهيمن عليها، ويضعها في سياقها الثقافي، أو الأدبي الذي تنتمي إليه، فالوحدة الأيديولوجية :"هي التقاء نظام النص، كممارسة سميولوجية[16] "، بما يحمله من في فضائه، أو يحيل عليه النص ذاته، وهذه الوحدة هي وظيفة التناص، التي يمكن قراءتها مجسدة في مستويات مختلفة، ملائمة لبنية كل نص، وممتدة على مداره، مما يجعلها تشكل سياقه التاريخي والاجتماعي، لذا تنظر السميولوجيا للنص، "من حيث خصوصيته الإنتاجية، لا كمنتج، ولكن كدليل متفتح ومتعدد الدلالات[17]"، عكس المقاربات التقليدية التي تعتبر النص عملا مغلقا، ومعنى محدودا، فتنتقل الدلالة من منطق الأنا إلى منطق الآخر.

وبهذا أدركت جوليا أن النص الأدبي يخضع في تركيبه الظاهر والخفي، لقوانين الوجود والعدم "مستفيدة من فلسفة كانت وهيكل وماركس وحتى لينين[18]"، فحولت النص الأدبي إلى قضية كبرى، لا تتوقف في وصف الظواهر الأسلوبية، ولاتقتصر على استخراج وضبط الوحدات، والوظائف الفرعية، بل" تحول الاهتمام والدراسة إلى بنية النص، والبحث عن ماهيته، دون التخلي عن حضوره المادي المحسوس[19]"، فهي تستهدف خصوصية النص، دون أن يعني ذلك التقوقع المعرفي، فهي تتجاوز المحايثة النصية

وانغلاق النص، دون تحديد جوانب هامة تتعلق بتكوين النص،لأنها أيضا تربطه بالدلالة التاريخية والاجتماعية، فهو "متواصل بالذات، والتاريخ، والمجتمع [20]"، دون أن تسقط التصورات الكلاسيكية، فهي لا تتحدث عن النص الأدبي تحديدا، "وإنما تعني بالنص كل ممارسة دالة في المجتمع [21]"، ويكون بذلك الانزياح عن تعبير اللسان عندها ليس خاصية أدبية، وإنما خاصية لجميع النصوص أي :"الممرات الدالة، لاتتولد إلا من خلال تغيير وتحويل النسق النحوي[22]"، ومع ذلك فهي تعتبر علاقة النصوص الأدبية بالنسق اللساني، "مجالا نموذجيا للحديث عن الممارسات الدالة[23]"، فالنص يتخذ من اللغة مجالا للنشاط، لكنه يأخذنا بعيداعن لغة الاستعمال، والتفاهم اليومي.

لقد قاومت **كريستيفا** الاستعمال الاتصالي للغة، وذهبت إلى أن "النص يضيء القدرة التوالدية التي في اللغة، فيبعثها[24]"، وهذا يعني أن النص لم يعد خاضعا لمثالية المعنى، وإنما يخضع لمادية لغة الدال، الذي ينتج آثار المعنى.

كما لاحظ **غريماس** أن مفهوم النص والخطاب، يتداخلان إلى حد الاندماج، وغالبا ما تُستعمل كلمة النص مرادفا للخطاب، فالخطاب عنده هو" عملية إنتاج شفوي، أما النص فهو مجموعة من البنيات الآلية التي تحكم هذا الخطاب؛ فالخطاب ملفوظ، أما النص فهو الشيء الافتراضي الناتج عن لغتنا العلمية[25]"، فالنص أعم من الخطاب عنده.

نستخلص أن الخطاب بنيات، قد تتآلف أو تختلف من حيث طبيعة بنية الجملة، ويرتبط صوغُه بتحقيق قصد معين، وهو شكل من أشكال التأثير على الآخر، وهو فعل يهدف إلى تعديل وضع معين، والخطاب تفاعلي يؤثر في المتلقي، ويتأثر به إذ للمتلقي دور هام في تشكيل صورة ومضمون الخطاب، لهذا يرتبط الخطاب بالدراسات التلفظية، والتداولية، وتحليل الخطاب. إذا كان الخطاب قد ارتبط بالمنطوق عموما، فإن النص ارتبط بالمكتوب، وهو أحد الفروق الجوهرية عند أغلب النقاد، بالرغم من تماهي مفهوم الخطاب والنص، في التصورات التي تدرج بُد السياق التواصلي، بحيث يصبح التفريق بين المفهومين صعبا حينا وملتبسا حين آخر.

إن مرجعية النقاد العرب في عمومها، هي المصادر الغربية، سواء أكانت بلغتها أم مترجمة، فتفرقوا وفق اختلاف هذه المرجعيات، واختلفوا بذلك في تحديد المفاهيم، كلٌ يدعي الصواب سواء في المشرق أو المغرب، فنجد محمد مفتاح استفاد من النظريات اللسانية واللغوية، ليحدد مفهوم الخطاب، ويفرق بين القول والنص وبين الخطاب والتلفظ، فيرى "أن القول والنص يفترضان عملية التلفظ والخطاب، وعليه فإن الخطاب والتلفظ أعم من القول والنص[26]"، فاستفاد بذلك من النظريات اللسانية واللغوية، ليحدد مفهوم الخطاب

والنص، ويحاول تطبيقه على مجمل أعماله النقدية، وكان واضحا في التفريق بينهما، بحيث أن النص عنده "له بداية ونهاية، ويتشكل من جمل متراكمة، تظهر ماخفي وتعينه[27]"، أما الخطاب فهو "يقوم على طرفين أحدهما المخاطِب والمخاطَب[28]".

أما السعيد يقطين فيعرف الخطاب انطلاقا من تعريف هاريس للخطاب، ويستند إلى البحوث اللسانية التي تتعدى الجملة إلى الخطاب، لكنه يفرق بين الخطاب والنص يرى :"أن الخطاب هو في آن واحد فعل الإنتاج اللفظي، سواء كان ملموسا أم مسموعا أو مرئيا[29]"، بينما "النص هو مجموع البنيات النسقية التي يتضمن الخطاب ويستوعبه[30]"، ويربط السعيد يقطين بين النص والخطاب، في علاقة متعددة الأوجه، انطلاقا من الذي يرى بان النص والخطاب واحد، أي:هما وجهان لعملة واحدة، تسمى النص، كما تسمى الخطاب[31]، مستمدا نظرته للشعرية باعتبارها نظرية عامة للخطاب الأدبي، ففي كتابه"تحليل الخطاب وانفتاحالنص"يربط الخطاب بالمظهر النحوي، والنص بالمظهر الدلالي، فالتحليل عنده لايتوقف عند حدود الوصف "الخطاب"، بل يتعداه إلى التفسير"النص[32]".

وإن كان هذا التعريف يقف معاكسا لتعريف محمد مفتاح للخطاب والنص، والمستوحى من تعريف غريماس، الذي يجعل الخطاب يتضمن النص ويستوعبه، بخلاف مايراه فان ديك، بأن النص أعم من الخطاب وهو التعريف الذي تبناه سعيد يقطين، وبهذا نضعهما الواحد مقابل الآخر في تحديد مفهوم الخطاب.

إن كان سعيد يقطين قد وسع تعريف النص والخطاب، من خلال ممارساته النقدية للخطاب الروائي، حيث يرى أن الخطاب "مظهر نحوي، يتم بواسطته إرسال القصة، وأن النص مظهر دلالي، يتم من خلاله إنتاج المعنى من لدن المتلقي[33]"، فالخطابيقف عند حدود الراوي والرواية، والنص يتجاوز هذه الثنائية إلى الكاتب والقارئ، ويربط يقطين بين النص والخطاب، في علاقة متعددة الأوجه، انطلاقا من الرأيالذي يمزج بين الخطاب والنص، على أنهما وجهان لعملة واحدة تسمى النص، كما تسمى خطابا، منطلقا من نظرته للشعرية، ففي كتابه – تحليل الخطاب – يربط الخطاب بالمظهر النحوي، والنص بالمظهر الدلالي، فالتحليل عنده لايتوقف عند حدود الوصف(الخطاب) بل يتعداه إلى التفسير (النص).

لقد حاول بعض النقاد العرب إزالة الالتباس، الذي وقع فيه بعض النقاد الغربيين، خاصة بين مفاهيم، الخطاب، والنص، والقول، التي" تتعالق مع مفهوم الأثر عند

بارت[34]"، كتمييز **عبد الله إبراهيم** بين هذه المفاهيم الثلاثة، فيحدد مفهوم الخطاب، "بأنه السياق الذي يتشكل فيه النص، ولامرجع للنص سوى الخطاب، ولامرجع للخطاب سوى الأثر، الذي يقوم بنوع من تمثيل البنية الثقافية للمرجع[35]"، فملكية الأثر تعود للمؤلف، "ولاملكية تلحق بالخطاب والنص، إنما يندرجان في علاقات واتصال وتفاعل مع القارئ[36]".

فالخطاب وُضع للقارئ، أما النص فهو حقل التحليل والتأويل غير المحدود، وهو خاصية القارئ المتميز، فشفراته تتعرض للاستنطاق والتأويل، فالخطاب يُفضل الباحث الواصف، والنص فيُفضل القارئ المؤول، والخطاب مشاع بين القراءالعاديين، الذين لايملكون أدوات التحليل والتأويل، والنص يستعصي على هذه الفئة، ويفتح مغاليقه أمام القارئ المتميز، الذي يملك زمام التأويل وتشريح النص، وإنتاج نص آخر.

أما **محمد الخطابي** فقد تعامل مع النص والخطاب، كما أنهما مفهوما واحدا، وإن كان يُغلب عليه استخدام مفهوم الخطاب، وهو يتحدث عن الاتساق، الذي يعني عنده "التماسك الشديد، بين الأجزاء المشكلة للنص /الخطاب، ، ويهتم فيه بالوسائل اللغوية (الشكلية)التي تصل بين العناصر المكونة لجزء من الخطاب، والعناصر المكونة لهذا الخطاب/النص، هي تلك الضمائر والإشارات [37]"، فلم يذهب الخطابي بعيدا في التفريق بين الخطاب والنص، بالرغم من وعيه بالفروق بينهما.

ويذهب **صلاح فضل** هذا المذهب، في عدم الفصل بين الخطاب والنص، عندما يحد النص على "أنه وحدة معقدة من الخطاباإذ لايُفهم منه مجرد الكتابة فحسب، وإنما يفهم أيضا على أنه عملية إنتاج الخطاب في عمل محدد[38]"، وإن كان في موضع آخر يرى" أن الخطاب مرحلة من مراحل الوصول إلى النص[39]"، لكنه يستخدم الخطاب والنص، للإشارة إلى مدلول واحد، عندما يتطرق إلى علم النص، وإن كان **صلاحفضل** قد استقر في كتاباته الأخيرة على مفهوم النص، على افتراض أن النص هو" الشكل النهائي لتحليل الشعر والنثر[40]".

لقد تعاملت **يمنى العيد** في المشرق مع مفهوم الخطاب والقول، على أنهما مترادفان فتقول:"نقول قول شعري، وحسب البعض، خطاب شعري، ولم يتبينالسبب وراء اختيار بعضهم لمصطلح الخطاب[41]"، فهي تفضل اعتماد القول بدل الخطاب، وتبرر اختيارها بأن القول يتضمن دلالة المنطوق، والتعبير الحي، في حين يشير مصطلح الخطاب إلى دلالة بلاغية، وصياغة جاهزة، وهو ما لايتسق مع المصطلح الأجنبي[42]"، ويبدو أن مرجعية **يمنى العيد**، في تحديد عناصرالخطاب أو القول، هي مقولات **تودروف**، التي تدمج بين

الخطاب والنص، وإنتنازلت في موضع آخر عن مفهوم القول، لصالح مفهوم الخطاب، خاصة في كتابها– فن الرواية العربية – معللة دمجها للمفهومين بأنها" سعت إلى قراءة لاتفصل ولو إجرائيا، بين خصوصية المعنى وتمييز الشكل، وبين الحكاية، من حيث علاقتها بالمرجعي الخاص، والخطاب باعتبار التقنيات التي يتعين بها هذا الخطاب، كجنس روائي مميز [43]"، فهي لاتذكر القول، وإنما توظف الخطاب في تعاملها مع النص الروائي العربي.

لقد أقرّ **منذر العياشي** بصعوبة تحديد مفهوم النص، أن وضع تعريف للنص يعتبر "تحديدا يُلغي الصيرورة منه، ويثبت إنتاجيته على هيئة نمطية، لايكون فيها زمانا للمتغيرات الأسلوبية، ويلغي قابليته التوليدية زمانا ومكان، ويعطل في النهاية فاعليته النصية[44]"، فينكر بذلك وضع النص في مجال التعريف العلمي، وحصره في دائرة لاتقبل الاجتهاد، وفي قفص يحد من حريته وانطلاقه زمانا ومكانا.

ويعتبر **عبد المالك مرتاض** النص مكونا للخطاب وصانعا له، لأن النص عنده هو "شبكة من المعطيات اللسانية والبنوية، والأيديولوجية، تتضافر فيما بينها لتكون خطابا[45]"، فيتخذ اللغة مجالا لنشاطه، ليمتد إلى أبعاد أخرى دلالية وعقائدية، يريد أن يصل إليها القارئ.

ويعتقد **مرتاض** أن النص الواحد "يجب أن يظل مفتوحا إلى ما لانهاية، وأن كل قارئ يمكن أن يقرأ بمنظاره، أو منظوره الخاص[46]"؛ وهو الأمر الذي دفع بمرتاض إلى استحداث التركيب المنهجي، كي يسد به متطلبات النص، وزاوج بين تراثنا النقدي اللغوي والبلاغي، وبين المناهج الغربية المختلفة، لربط التراث بالحداثة، لذا يرى أن النص "يتسم بأنه صياغة لغوية، وبنية تركيبية وأدائية، وهوملفوظ وتلفظ واستقبال[47]"فتعالق كل هذه العناصر، تصنع عالما خاصا يسمى النص. والنتيجة المستقاة من كل هذه الاختلافات، في تحديد مفهومي الخطاب والنص عند النقاد العرب، هي أن اغلبهم سار في فلك منظري هذه المناهج، وإن كنا نعترف لـ **المسدي** بأنه فرق بين النص والخطاب، مع ربط العلاقة بينهما في جسم واحد، له وظائف متعددة، تختلف الواحدة عن الأخرى، فالنص "لايجيب عن الحقيقة، وإنما يتبدد إزاءها، يخترق وجه العلم والأيديولوجية والسياسة[48]"، والنص خطاب منفتح على الاحتمالات اللامتناهية، و"الخطاب بنية تُدرس في ذاته ولذاته، وما يميزه هو انقطاع وظيفته المرجعية، لأنه لايرجعنا إلى شيء ولايبلغنا أمرا خارجيا، إنما يبلغ ذاته، وذاته هي المرجع المنقول في نفس الوقت[49]"، وبالتالي فهو يحمل معنى الاستمرارية، والتواصل والحركة.

إن النص مرتبط باللغة، وهو تتابع متماسك من الجمل، نحوية كانت أم دلالية، وهو مايميز النص، بالإضافة إلى وحداته الصغرى والكبرى التي تتسم بالتناسب، فالجملة ماهي إلا جزأ صغير يرمز إلى النص، وإن كانت تُعد وحدة مستقلة، إلا أنها تتداخل مع الوحدات الأخرى لتحقق في النهاية وحدة النص ككل، وذهب البعض إلى أن الجملة لم تعُد تامة ولامستقلة في النص، لأن "النص يُعد عنصرامشتركا بين المنتج والقارئ، وتفسيره عملية معقدة"[50]، وهذا يعني أن الأسلوب والبناء ليس خاصية ثابتة في النص، و"إنما كيفية ممكنة، ينبغي أن يُسترجع في عملية الاستقبال[51]"، فالمبدع يجعل من نصه وحدة متكاملة، بغض النظر عن طول الجمل وقصرها.

يربط بعض النقاد بين النص والمضمون، فيعتبرون أن النصوص الإبداعية "لغوية، يستدعيها واقع معين، أووجهة نظر فعلية معينة[52]"، لذا يجب فهم النص في إطار هذه الخاصية الإبداعية، وهي أبنيتهُ المعنوية أي التركيز على المعاني، حيث لا يجوز الاكتفاء بالعناصر اللغوية المادية، التي تتشكل منها أبنية النص، -كما تدعو إليه المدرسة البنيوية – وإنما يجب الاهتمام بأوجه التفاعل بين النص والمتلقي، لتحديد العناصر المؤثرة، وكيفية توظيفها، والتأثيرات الاتصالية التي يحققها النص، لأن النص يتحكم في إنتاجه مجموعة من العمليات سواء كانت لغوية، أو اجتماعية، أو معرفية، تتشكل منها أجزاؤه القائمة على قواعد النظام المستخدم في اللغة، وفهم النص يقتضي التعامل مع كل هذه العناصر المكونة له، والعلاقة بين النص والخطاب هي أساسا علاقة انبثاق وتجسيد، بحيث يجسد الخطاب تعبيره في النص، وهو يمثل البعد الاجتماعي، بينما يمثل النص البعد اللغوي، وبهذا يكون النص تحيينا للخطاب، وتحقيقا لغويا له. كما نميل إلى التعاريف التي تصف الخطاب على أنه بنية كلية تستوعب النص، أو مجموعة من النصوص، وهو شكل من أشكال التأثير على الآخر، ويسعى من خلال النص المستوعب فيه، إلى تعديل وضع معين، ويلعب المتلقي دورا فعالا في تشكيل صورة الخطاب، لأن الخطاب يتسم بالتفاعل، فيؤثر في المتلقي ويتأثر به.

لقد سعى النقاد العرب إلى الوصول إلى تعريف لثنائية النص والخطاب، كلٌ وفق مرجعياته الثقافية، إلا أنهم غرقوا في اختلافاتهم التي ترجع – ربما – إلى تمكن هذه المرجعيات الثقافية من نفوسهمفانحازوا لها، بالرغم من بالمثاقفة التي عمت العالم، فتحول الكون باسم العولمة إلى فضاء مباح للجميع، للسعي وراء الثقافة العالمية، إن لم نقل ضاق العالم فسعت الثقافة إلى الإنسان، وتلاقحت الخبرات في كل المجالات، حتى أصبحنا لا نفرق بين جنسيات الثقافة لولا اللغة، التي في بعض الأحيان تصنع الفارق، وتميز جنسية النص أو الخطاب، وإن كنا نعتقد أن بعض المبدعين يعبرون بلغتهم الأصلية عن ثقافات الآخرين، ويروجون لأفكارهم، ويذودون عن أطروحاتهم، حتى وإن تعارضت مع بعض من ثقافات شعوبهم ومجتمعاتهم الأصلية.

لا تتكشف دلالة المصطلح إلا بوساطة شرطين أولهما: مفهومه الذي اكتسبه في حقل معرفة ما، عبر ظروف تاريخية معروفة، وثانيهما: إندراجه في علاقات تفاعل مع مصطلحات مجاورة، تبين مدى اختلافه عنها، ومن بين المصطلحات التي تحوم في المدار نفسه مصطلح " الأثر"، يعرف رولان بارث الأثر بأنه كل مايشغل حيزا في المكتبة، أي ماله وجود مادي بوصفه أثرا محسوسا، يمكن الاحتفاظ به، أما النص فهو "حقل منهجي" هو نتاج التعبير الأدبي فالأثر" الأدبي يُحمل باليد والنص يحمله الكلام، بينما يُعد الخطاب المحضن الذي ينوجد فيه النص، فهو الذي يوجه قراءته طبقا للسنن التي ينطوي عليها، فالنص متصل بالخطاب، متلاحما معه ذلك أن النص لا يستطيع أن يتواجد إلا عبر خطاب".[53]

وهو يوجد ضمن الخطاب، لأن للأخير نظاما له قواعد عامة وموجهة، فيما يكون النص هو التجلي الفردي لتلك القواعد، فالعلاقة بينهما أشبه بعلاقة الكلام باللغة في اللسانيات.

إن الخطاب هو السياق الذي يتشكل فيه النص، و لامرجع للنص سوى الخطاب، تعود ملكية الأثر لمؤلفه، بينما لا ملكية تلحق بالخطاب والنص، إنما يندرجان بعلاقات اتصال وتفاعل مع القارئ، فالخطاب يكون موضوعا لبحث القارئ، أما النص فهو الذي يكون موضوعا للقارئ النموذجي الذي يجعل منه حقلا للتحليل والتأويل غير المحدود، وإذ تعنى الشعرية باستنباط نظم الخطاب وقواعده وأبنيته، يعنى علم الدلالة باستنطاق وتأويل شفرات النص، فالنص لا يمكن أن يقتصر على مدلول محدد، فهو يتخصب بالقراءة التي تشحذه بإمكانيات لا نهائية من الدلالة.

---

[1]- فاضل ثامر. اللغة الثانية . في إشكالية المنهج والنظرية والمصطلح في الخطاب النقدي العربي الحديث. ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ، بيروت ،1994 .ص: 75.

[2]- محمد عناني. المصطلحات الأدبية الحديثة. ط1، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان 1996. ص:199.

[3]- اوزوالد ديكرو وجان ماري سشايفر .القاموس الموسوعي لعلوم اللسان .المركز الثقافي العربي ،المغرب ،د ط ،د ت .ص:465.

[4]- تودوروف–النص . تر، منذر العياشي . ط1، المركز الثقافي العربي ، بيروت ،2004 . ص:110.

[5]- عبد الله إبراهيم. الثقافة العربية المرجعيات المستعارة ، ص:116.

[6]- توفيق الزبدي .أثر اللسانيات في النقد العربي الحديث .الدار العربية للكتاب ،1984 .ص:132.

[7]- المرجع نفسه ،ص:141.

[8]- رولان بارت.نظرية النص.تر: محمد خير البقاعي .مجلة العرب والفكر العالمي.ع1988،3 ص:52.

[9]–المرجع السابق،ص: 60.

[10]–تزيفتان تودوروف.العلاماتية وعلم النص .،ط1، تر، مندر العياشي .المركز الثقافي العربي ،الدارالبيضاء ،بيروت ،2004 . ص:109.

[11]- المرجع نفسه ،ص:110.

[12]–المرجع نفسه ،ص: 122.

[13]- يوري لوتمان . مشكلة المكان الفني .تر، سيزا قاسم ، الف ، عدد 6 ،1976. ص:73.

[14]- جوليا كريستيفا .علم النص .ط1 ، تر، فريد الزاهي ،مراجعة عبد الجليل ناظم ، دار توبقال للنشر ،المغرب ،1997 .ص:21.
[15]- صلاح فضل . بلاغة الخطاب وعلم النص .ط1، مكتبة لبنان ناشرون ،الشركة المصرية العالمية للنشر ، لونجمان ،مصر، 1996 . ص: 294 .
[16]- جوليا كريستيفا .علم النص . ص:32.
[17]-المرجع نفسه ،ص: 22.
[18]سعيد حسن بحيري .علم لغة النص .ط1، المفاهيم والاتجاهات ، مكتبة لبنان ناشرون ،الشركة المصرية العالمية للنشر ،لونجمان ،مصر،1997 .ص: 34.
[19]- سعد مصلوح .العربية من نحو الجملة إلى نحو النص .جامعة الكويت ،1990.ص:407.
[20]- المرجع نفسه ،ص:408 .
[21]سعيد حسن البحيري .علم لغة النص ،ص: 38.
[22]- جوليا كريستيفا.علم النص ،ص:34.
[23]- المرجع نفسه ، ص:35.
[24]- المرجع نفسه ،ص:45.
[25]-غريماس .السميائيات السردية المكاسب والمشاريع. تر، سعيد بنكراد ،مجلة آفاق ،اتحاد كتاب المغرب ،عدد9/8 ، 1988 .ص:42.
[26]- محمد مفتاح . بعض خصائص الخطاب . علامات في النقد . النادي الأدبي الثقافي ،جدة ،المملكة العربية السعودية ،ج35 ، مج9،2000 .ص: 56.
[27]- محمد مفتاح .التشابه والاختلاف.ط1، المركزالثقافي العربي ،الدار البيضاء، بيروت ،1996.ص:34
[28]- المرجع نفسه ،ص:35.
[29]- يقطين السعيد. تحليل النص الروائي .ط2 ،المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء ،بيروت ،2001. ص:16.
[30]- المرجع نفسه ،ص:16.
[31]- المرجع نفسه ،ص:18.
[32]- المرجع نفسه ،ص:17.
[33]- رولان بارت .درس السميولوجيا .ط2، تر، عبد السلام بن عبد العالي ،دار توبقال للنشر ،الدار البيضاء ،1986 ، ص: 89.
[34]- عبد الله ابراهيم ،الثقافة العربية ،ص:116.
[35]- المرجع نفسه ،ص: 121.
[36]–المرجع نفسه،ص:122.
[37]– محمد الخطابي .لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب .ط1،المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء بيروت ،1991 .ص:5.
[38]–صلاح فضل .بلاغة الخطاب وعلم النص ،ص:294.
[39]المرجع نفسه .ص:299.
[40]–صلاح فضل .أساليب الشعرية المعاصرة .ط1، دار الأدب، بيروت ،لبنان ،1994.ص:7.
[41]– يمنى العيد .في القول الشعري .ط1، دار توبقال للنشر. المغرب ،1987،ص:10.
[42]–المرجع نفسه ،ص:12.
[43]-المرجع السابق ، ص: 24.
[44]– منذر العياشي .مقالات في الأسلوبية.ط1، منشورات اتحاد الكتاب العرب،سويا ،1990.ص:207.
[45]– عبد الله مرتاض . نظرية النص الأدبي .ط1، دار هومة ،الجزائر ،2010 . ص:9.
[46]عبد المالك مرتاض .التحليل السميائي للخطاب الشعري .تحليل مستوياتي لقصيدة شناشيل ابنة الحلبي ط1،دار الكتاب العربي ،لجزائر ،2001. ص: 18.
[47]المرجع نفسه ،ص: 11.
[48]السعيد يقطين.تحليل الخطابوانفتاح النص.ط1،المركز الثقافي العربي ،الدار البيضاء ،بيروت ،ص:54.
[49]–محمد عابد الجابري.الخطاب العربي المعاصر.ط2،دار الطليعة ،بيروت ،لبنان، 1985.ص: 8و9.
[50]–المرجع السابق ،ص: 10.
[51]– عبد السلام المسدي.الأسلوبوالأسلوبية.ط3،الدار العربية للكتاب ،طرابلس،ليبيا،1982.ص:46.
[52]– محمد الشاوش .فصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية .ط1،المؤسسة العربية للتوزيع ، تونس ،2006.ص: 477.
[53] رولان بارث: درس السيميولوجيا، تر: عبد السلام بن عبد العالي ، ص: 60.